Religion according to Gustave Le Bon

Farook Zuhair Al-Qaragully
farooqzuhair59@gmail.com
Prof. Heba Adel Al-Azzawi (Ph.D.)
hedaadel@coart.uobaghdad.edu.iq
University of Baghdad- College of Arts

DOI: https://doi.org/10.31973/a2v49747

Abstract:

There is no issue that man was involved in matter of doing, thinking, and speaking since the beginning of time than that of religion. Religion is a common phenomenon that exists everywhere. And it makes a unique human event. It is known that throughout history there are civilizations without arts, and ones without financial progress, but never a civilization without religion. Within the framework of this unique phenomenon, studies started to find out the roots of the idea of religion in the history of mankind. The French intellectual "Gustave Le Bon" came to unveil the truth about religion. He started to ask plenty of questions such as, how did religion start? What are the primary motives behind the existence of religion? How can a human being believe in a set of unshakable, doctrinal rules? Accordingly, all of these inquiries that Gustave Le Bon has presented will be answered using the descriptive, analytical method.

Keywords: Belief, gods, mind, religion.

الدين عند غوستاف لوبون

الباحث فاروق زهير القرة غولي
جامعة بغداد – كلية الآداب

أ.د. هبة عادل العزاوي
جامعة بغداد – كلية الآداب

(مُلَخَّصُ البَحث)

لا توجد قضية شغلت الإنسان منذ فجر التاريخ عملًا واعتقادًا وحديثًا ودراسة كقضية الدين، فالدين ظاهرة عامة موجودة في كل مكان، وتشكل حدثًا إنسانيًا فريدًا، ومن المعلوم أنه يوجد في التاريخ حضارات بلا فنون، وحضارات بلا تقدم مادي، ولكن لا حضارة بلا دين، وفي إطار هذه الظاهرة الفريدة بدأت الدراسات بالبحث عن جذور فكرة الدين في تاريخ البشرية، فجاء المفكر الفرنسي "غوستاف لوبون" لرفع الستار عن الدين، وبدأ بتوجيه مجموعة من الأسئلة منها: كيف بدأ الدين؟ ما الدوافع الأولى لظهور الدين؟ وكيف يمكن للإنسان أن يؤمن بأنظمة عقائدية راسخة؟ ومن خلال هذا البحث سنجيب عن مجموع هذه التساؤلات التي قدمها لوبون عن طريق استعمال المنهج التحليلي الوصفي.

الكلمات المفتاحية: الدين، الآلهة، المعتقد، العقل

مقدمة:

إن مفهوم الدين، كما يراه غوستاف لوبون، لا يفترض بالضرورة وجود كيان لاهوتي متعالي، ويذكر أن الآلهة ليست سوى خلق من خيالنا، لا شك بأن الإنسان هو من اخترع الآلهة، لكنه سرعان ما أصبح خاضعاً لها بعد أن اخترعها لمدة قصيرة جداً، فيرى إنها ليست نتيجة خوف، بل نتيجة أمل، ومن ثم يصبح تأثيرها أبديا، وبالطبع أن الآلهة ليست خالدة، لكن جوهر الدين أبدي فيتحول هذا الجوهر إلى جوهر باهت لمدة من الوقت، ثم يستيقظ مرة أخرى بمجرد اختراع كيان مقدس جديد.

المطلب الأول: الفرق بين المعتقد والمعرفة عند غوستاف لوبون:

في البدء يفسر لوبون الفرق بين المعتقد والمعرفة، ففي كتابه (الآراء والمعتقدات)، يرى أن هناك من يقوم أحيانًا بالخلط بين المعتقد والمعرفة، على الرغم من وجود اختلاف كبير بينهما؛ فالعلم والاعتقاد أمران مختلفان في مصدريهما وتكوينهما، ويرى أنه يتم تسييرنا بالرأي والمعتقد، وعنهما تنشأ أكثر حوادث التاريخ، ولا فرق بينهما وبين الأحداث الأخرى من حيث كونهما تابعين للقوانين، وإن كانت هذه القوانين لم تعين حتى الآن، وبالنسبة للفرق بين المعتقد والمعرفة، فيرى لوبون أن المعتقد هو إيمان ناشئ عن مصدر لا شعوري يجبر الإنسان على تصديق فكر أو رأي أو تأويل أو مذهب جزافًا، أما المعرفة فهي عنده عنصر الحضارة الأساس، وهي العامل الكبير في ارتقائها المادي. (لوبون، ٢٠٢٠، صفحة ١٥)

ويقر لوبون أن المعتقد غير إرادي وغير عقلاني، ويستشهد بقول الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال (١٦٢٣– ١٦٦٢) الذي قال: «إن الناس يعتقدون بتأثير العاطفة لا بتأثير الدليل والبرهان، ثم قال: إن بيان كيفية هذا الاعتقاد أي الاعتقاد بتأثير العاطفة هو من الصعوبة والدقة والغرابة حيث يستحيل على من هو مثلي». (لوبون، ٢٠٢٠، صفحة ١٦)

ويرى غوستاف لوبون من جهة أن العقل هو غريب عن تكوين المعتقد، ولا يأخذ العقل في تسويغ المعتقد إلا بعد أن يتم تكوينه _أي العقل، ويصف لوبون المعتقد بأنه كل ما هو من عمل الإيمان، ومتى استعان المرء في تحقيق صحة المعتقد بالتأمل والتجربة لا يظل المعتقد معتقدًا، بل يصبح معرفة، والمعتقد والمعرفة أمران نفسيان مختلفان من حيث المصدر اختلافًا تامًا؛ إذ إن المعتقد هو تعبير عن إلهام لا شعوري ناشئ عن علل بعيدة عن إرادتنا، والمعرفة عبارة عن اقتباس شعوري عقلي قائم على الاختبار والتأمل. (لوبون، ٢٠٢٠، صفحة ١٨) ومن جهة أخرى يرى لوبون أن عناصر العقل لم تمثل أي دور في تكوين الآلهة، وعندما حاول أنصار المذهب العقلي تسويغ إيمانهم بالعقول تناسوا أن الأديان كانت قائمة منذ زمن، وعندما فشل تأثير البراهين في الإيمان ظهر علماء اللاهوت من المبرهنين في كل زمن، لكن هؤلاء العلماء حصروا أنفسهم في دائرة المعتقد ولم يستطيعوا

الخروج منها، ولم يوفق علماء اللاهوت أيضًا في القرون الوسطى في التوفيق بين الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ومنطق أرسطو والمعتقدات النصرانية، فكانوا يطمعون لاكتشاف براهين قاطعة لدعم إيمانهم، ومن هذه الفئة يشير لوبون إلى القديس (أنسيلم) ، فيقول أنه كان يعتقد بوجود براهين تكسر كبرياء اليهود، فكان بحثه عن هذه البراهين بلا جدوى. (لوبون، حياة الحقائق، ٢٠٢٠، الصفحات ٣٩-٤٠)

وبعدها يشير لوبون إلى: «أن علماء اللاهوت يعترفون طائعين، أن العقل لا يصلح لتسويغ الإيمان، وتدل جميع الملاحظات حول تكوين الأديان وتطورها على اشتقاق اليقين الديني من عناصر عاطفية ودينية، لا من البراهين العقلية، فالبراهين العقلية، وإن كانت تنضد فوقه أحيانًا، لم يكن تأثيرها في المعتقدات إلا صفرًا على الدوام». (لوبون، حياة الحقائق، ٢٠٢٠، صفحة ٤٠)

وعندما تقدم الإنسان إلى مرحلة الرقي بدأ يكتشف أمر المعرفة، وكلما تقدم الإنسان في عالم المعرفة ظهر له أن الحوادث التي عزا الناس ظهورها إلى موجودات علوية لم تحدث إلا بتأثير نواميس قاهرة، وقد تغيرت صورة فهم الكون في الإنسان منذ اقترب من دائرة المعرفة، ولكنه يصعب الخوض في هذه الدائرة الجديدة كثيرًا؛ لأن العلم يرى على الدوام شيئًا من الجهل متخللًا في اكتشافاته، فأكثر الحقائق وضوحًا تبطن شيئًا من الأسرار. (لوبون، الآراء والمعتقدات، ٢٠٢٠، صفحة ١٩)

المطلب الثاني: نشوء المعتقدات من وجهة نظر غوستاف لوبون:

يرى غوستاف لوبون أن الدين عندما يظهر يبدأ في توجيه سلوك الأفراد، ويترك بصماته في الحضارة، ثم يموت شأنه شأن الظواهر الطبيعية، وإن كان موتًا رمزيًا، وإن شئنا الدقة فيمكن أن نقرر بأنه يغير إسمه، وعن ذلك يقول لوبون أن: «المعتقدات تشبه الحركة التي تدرس في كتب الفيزياء تتحول أحيانًا، ولكن من غير أن تموت أي أن المعتقدات تغير اسمها، وهذا التغير هو الذي نسميه موتًا». (لوبون، الآراء والمعتقدات، ٢٠٢٠، صفحة ٢٤٠) وفي سياق نشوء المعتقدات، يرى أغلب علماء الأنثروبولوجيا أن الدين ملازم لوجود الإنسان لدرجة تدفع إلى القول إنه فطري فيه، وهي الفكرة التي يدافع عنها رجال الدين في كل مكان وزمان، لكن نجد من يخالفهم ويرى أن الدين من وضع البشر، وحاول المفكر السوري فراس السواح في كتابه (دين الإنسان) باختصار هذه الآراء في نظريتين: الأولى ردت الدين إلى العقل، والثانية نسبته إلى أصول عاطفية، ويرى أن النتيجة التي تستدعيها كلا النظريتين، هي أن الدين لا ينبع إلا عن وهم خلقه خيال البشر أو عواطف الناس عبر التاريخ. (السواح، ٢٠٠٢، صفحة ٣١٣) وهو نفسه التصور الذي نجده عند غوستاف لوبون.

لكن لوبون يقول في كتابه (مقدمة الحضارات الأولى)، أن تقدم العلم الحديث سهل لنا الطريق في معرفة أصول المعتقدات الدينية والحاجة إلى التدين، على اساس أنها تلك العاطفة الخفية التي نجدها عند أغلب الأمم، ويعدها المتدينون وحيًا داخليًا يسبق وحي المعجزات الذي جاء به الأنبياء، ولكن عندما تطورت الاستكشافات الحديثة في علم النفس هدمت هذا الاعتبار فلا يمكن عد المعتقدات اليوم إلا ثمرة طبيعية من ثمار مخ الإنسان وقلبه؛ لأنها تنشأ وتترقى فيه وتضج كسائر الأفكار والعواطف، ويرى من السهل الصعود إلى أصلها وإدراك خضوعها لقوانين التطور، أسوة بجميع مظاهر العقل الإنساني. (لوبون غ.، ٢٠٢٠، صفحة ٦٥)

يصف لوبون الجذور الأولى للتدين بالسذاجة، ويحيل هذه الجذور إلى الجانب الشعوري، ويقدم مشاعر الخوف والرجاء على أنهما منابع أساسية للتدين. وفي الوقت الذي يتغاضى فيه عن إبانة معنى الرجاء، نجده يستفيض في تحليل وتوضيح معنى الخوف، إذ يعتقد لوبون أن تركيبة العقل البدائي يشوبها النقص والعوار، كونها عقلية ترتاب من الظواهر الطبيعية، فنجد الإنسان البدائي يفسر تلك الظواهر وهو تحت وطأة الخوف، عبر مقارنة هذه الظواهر مع ما يواجهه من أحداث يومية، فيصور ظاهرة الصواعق على أنها تمقت وجوده فتحرق مسكنه، بالكيفية نفسها التي يحرق فيها العدو بيته. إلى جانب الظواهر الطبيعية يتولد إحساس الخوف عبر تطابق الأحلام مع أحداث الواقع، كل ذلك يولد تصورا لدى الإنسان البدائي بوجود قوى خفية تسير الظواهر الكونية والأحداث اليومية. (لوبون غ.، ٢٠٢٠، الصفحات ٦٥-٦٦) وفي السياق نفسه أيضًا عبر الفيلسوف بارون دولباخ (١٧٢٣-١٧٨٩) في كتابه (نظام الطبيعة) أن الآلهة قد وجدت في نفوس الناس بسبب الخوف والجهل أو بعبارة أخرى فإن الجهل والخوف بين الناس هما مصدر تصور الناس بوجود آلهة، ويرى أن الوهم والخيال والحماسة والخداع زيتها أو شهوتها. (دولباخ، ١٩٨٨، صفحة ٢٨٩) ويرى لوبون أن الروح الدينية أو العاطفة الدينية عنصرا جوهريا من عناصر الأديان، وهي ذات شأن عظيم في تكوين المعتقدات الدينية، وهذه الروح الدينية لست هي الأساس الوحيد للمعتقدات الدينية، فلهذه المعتقدات دعائم من العناصر العاطفية أيضًا، ويزعم لوبون من بين هذه العناصر هو الخوف والرجاء. (لوبون غ.، حياة الحقائق، ٢٠٢٠، صفحة ٣٤) فيرى أن خوف الإنسان أمام القوى الهائلة المحيط به، وأيضًا مخافة القوى الطبيعية المتحولة إلى آلهة هو أمر طبيعي من أجل العيش بسلام، فيعطي مثالًا على ذلك، فيقول ليس الخوف والرجاء في الأديان البدائية وحدها، «بل يبدو أيضًا في أديان أمدن الأمم، فما كانت لتقوم للنصرانية قائمة بغير الخوف من نار جهنم والأمل في نعيم الجنة». (لوبون غ.، حياة الحقائق، ٢٠٢٠، صفحة ٣٥)

ويعتقد لوبون إن غياب الحس الفلسفي كان السبب وراء عدم إدراك المجتمعات البدائية للآلهة بوصفها ذوات تدرك بواسطة العقل، لتسيطر الخرافات والأساطير على طريقة تفكيرهم، إذ إن ما يميز الجهل يتمثل في غياب الدهشة، الدهشة التي تبعث الإنسان على التفلسف والتساؤل ومن ثم تؤسس لمعتقدات دينية بعيدة عن السذاجة والريبة وقريبة من العمق واليقين، ليتم بذلك إزاحة المشاعر والاستعاضة عنها بالعقل. (لوبون غ.، ٢٠٢٠، الصفحات ٦٧-٦٨)

وبعدها يعد لوبون المعتقدات الدينية من بين أهم المبادئ التي تسير عليها الأمم وتعد منار التاريخ ورمز الحضارة، وإن الدين على الدوام هو أهم عنصر من عناصر الحياة في تاريخ حياة الأمم، فأكبر حوادث التاريخ التي أنتجت أعظم الآثار هو قيام الديانات وسقوطها، ويعد لوبون أن أول المسائل الأساسية في الزمن الماضي والزمن الحاضر هي المسائل الدينية، ولو أن الإنسانية رضيت بموت جميع آلهتها لكان هذا الحادث أعظم الحوادث على وجه الأرض منذ ظهور المدنيات الأولى. (لوبون غ.، القواين النفسية لتطور الشعوب، ٢٠٢٠، صفحة ١٣١)

ويرى لوبون أن بعض الأديان أسست أعظم الممالك، ومنها الدين الإسلامي الذي أسس الحضارة الإسلامية، ويقول: «لقد اعتنقت قبائل البدو في جزيرة العرب دينًا أتى به أمي، فأقامت بفضل هذا الدين في أقل من خمسين سنه دولة عظيمة كدولة الإسكندر، زينت جيدها بقلادة من المباني الفخمة التي هي آية في الإعجاز، وقبل ذلك ببضعة قرون آمنت شعوب متوحشة بعقيدة دعا إليها رسل أتوا من زاوية مجهولة في بلاد الجليل، فقوضت بتأثير هذه العقيدة دعائم العالم القديم، مقيمة على أنقاضها حضارة جديدة ينطق كل عنصر منها بذكر الرب». (لوبون غ.، الآراء والمعتقدات، ٢٠٢٠، الصفحات ١٦-١٧)

تأتي أهمية فلسفة الدين لدى غوستاف لوبون في سياسات الدول، إذ يعتقد أن جميع النظم السياسية والتدابير الاجتماعية قد استندت منذ بداية التاريخ إلى المعتقدات الدينية، وإن الآلهة هم الذين أدوا الدور الأكبر في حياة الإنسان، فيرى الدين هو الأسرع تأثيراً في الأخلاق، ولا يوجد مؤثر آخر غير الحب الذي عده لوبون الحب دينًا، إلا أنه دين ذاتي غير دائم، وأيضًا أن الأوهام لها سحر مستمر، له تأثير قوي يتغير به المزاج العقلي كلياً، وخلق الإنسان الآلهة، لكنها سرعان ما استبعدته وبنت فيه الأمل لا الخوف؛ لذلك كان تأثيرها أبديًا، وجعلت عقله مشبعًا بفكرة السعادة تميزت بذلك عن كل مؤثر آخر ، ويعتقد لوبون أن الفلسفة فشلت في تحقيق هذه الغاية حتى الآن. (لوبون غ.، القواين النفسية لتطور الشعوب، ٢٠٢٠، صفحة ١٣٢) وبعدها يحدد لوبون خصائص الدين، ويرى أن كل إيمان يتوفر

عليها ومهما كان شكله فأنه يرقى إلى درجة الأديان حتى ولو كان حزبا سياسيا ومن هذه الخصائص. (لوبون غ.، سيكولوجية الجماهير، ١٩٩١، الصفحات ٩١-٩٢)

١- عبادة إنسان تعد خارقًا للعادة.

٢- الخوف من القوة التي تعزا إليه.

٣- الخضوع الأعمى لأوامره.

٤- استحالة أية مناقشة لعقائده.

٥- الرغبة في نشر هذه العقائد.

٦- الميل لاعتبار كل من يرفضون تبنيها بمثابة أعداء.

وهذه الخصائص إذا توافرت لأي شخص أو جماعة، ستكون له سيطرة كبيرة جدًا على حياة المؤمنين بها، ويرى أن من أهم هذه الخصائص هي عدم مناقشة العقائد، أي تجنب إعمال العقل وممارسة النقد في قضايا الدين؛ لأن مصيرها الفشل، فيقول لوبون: وتأثير الإثبات عليه هو مجرد تأثير على الجوع والعطش؛ لأنه عندما ينضج الاعتقاد في منطقة اللاوعي، حيث لا يصل إليه العقل ، يعاني منه دون الجدل حوله. (لوبون غ.، الآراء والمعتقدات، ٢٠٢٠، صفحة ١٦) أي أن قيمة الدين تكمن في فعاليته.

ويذكر المفكر السوري قسطنطين زريق في كتابه (في معركة الحضارة)، إذا أردنا البحث في الحضارة، يقتضي في البدء البحث عن الدين، وتبين حقيقته وسره السائد فيها، وإدراك روحه، وعقائده ونظمه[1]؛ لأن الدين ينعكس على حياة المتدين، فيقول لوبون: على الفرضيات العلمية يقوم صرح معلوماتنا ومعارفنا، وعلى الفرضيات الدينية شيدت أركان جميع المدنيات. (لوبون غ.، اختلال التوزان العالمي، ١٩٣٨، صفحة ٣٥٦) يرى لوبون أن ثمة عوامل خارجية مؤثرة ومتحكمة تقف وراء المعتقد الديني، على اعتبار هو أقوى نزعة تسري في دم الإنسان، وحصر لوبون هذه العوامل بستة عوامل رئيسة وهي: (لوبون غ.، الآراء والمعتقدات، ٢٠٢٠، صفحة ١٩)

١- التلقين: يعرف لوبون التلقين بأنه كناية عن قوة الإقناع ليس بالأفكار وحدها، بل بأي عامل آخر؛ كالتوكيد والنفوذ، ولو نظرنا إلى الأفكار من دون غيرها لرأيناها ذات تأثير ضعيف، وإن ميزة التلقين تظل راسخة في مخيال الفرد، ويرى لوبون أن أكثر آرائنا ومعتقداتنا سياسية كانت أو دينية أو اجتماعية، هي نتيجة التلقين.

٢- الانطباعات الأولى: يقول لوبون هي أول ما يشعر به المرء عند مصادفته أول مرة ما جهله سابقًا من رجل، أو حادثة، أو شيء آخر،إذ إن التدقيق في الأمر متعب شاق فإن الناس يكتفون على العموم بالانطباعات الأولى، وعليه يرى لوبون أن الانطباعات الأولى

[1] ينظر: قسطين زريق، ط١، ص٩٥.

هي دلائل مبهمة، وعلائم غير صحيحة يجب نقدها، والاستمرار في البحث عن حقيقتها على الدوام، وإلا فإن عدم تمحيصها، يؤدي إلى وقوع المرء في الضلال مدة حياته، وذلك؛ لأنه ليس لها دعامة تستند إليها سوى العواطف والكراهة الغريزية التي لا يرشدها أي عقل، ولأنه مبادئنا في العدل والظلم، والخير والشر، والصواب والخطأ، تقوم في أكثر الأوقات على هذه الأسس الواهية، والسبب في ذلك هو جهل الإنسان، فالناس لا يحبون التدقيق واستعمال العقل ؛لأن أول شيء يسودهم الانطباعات.

٣- الاحتياج إلى التفسير: يرى لوبون أن الاحتياج إلى التفسير كالاحتياج إلى الاعتقاد فهو يلازم الإنسان من المهد إلى اللحد، وقد ساعد على تكوين الآلهة، ويساعد على ظهور عدد غير قليل من الآراء، ويسهل قضاؤه، فأبسط الأجوبة تكفيه، وهذه السهولة هي مصدر كثير من الأغلاط، فيقع ضحيتها الإنسان من دون أن يعي ذلك، أي أن الدين مثلًا وليد الحاجة إلى تفسير الكون و معضلات الوجود.

٤- الألفاظ والصيغ والصور: يعد لوبون الألفاظ والصيغ من أكثر العوامل توليدًا للآراء والمعتقدات، لما فيها من قدرة رهيبة قد أوجبت هلاك أناس أكثر من الذين قتلتهم المدافع، وما في الألفاظ من قدرة، وتنشأ كونها توقظ في المرء مشاعر دالة عليها.

٥- الأوهام: وهنا يقول لوبون أن الأوهام تكتنفنا منذ عهد الطفولة حتى الموت، ونحن لا نعيش إلا بالأوهام، ولا نتبع سوى الأوهام، وبأوهام الحب والحقد والحرص والفخر نحافظ على قوة السير والحركة وفي الوقت نفسه غافلين عن قسوة المصير، أي أن الخيال أو ما يتوهمه المرء يؤدي دورًا لا يمكن إنكاره في ما يخص المعتقدات ومن يجيد إيهام غيره بأية وسيلة سينجح في جذبه إليه.

٦- الضرورة: يقول لوبون يوجد فوق أهواء المشترعين الذين لا يفتؤون يسنون القوانين في سبيل إصلاح المجتمع؛ أي أن الضرورة تتحكم في آراء الفرد فالمجتمع الفرنسي كمثال يورده لوبون يعيش على الرغم من قوانينه التي هي ضرورية لمواصلة التقدم ونشر الأمن فالمرء يؤمن باحترام الغير والقانون والحقوق ؛لأنها ضرورية.

إما المبادئ النفسية التي تسيطر على نشوء المعتقدات بحسب غوستاف لوبون فهي: (لوبون غ.، فلسفة التاريخ، ٢٠٢١، الصفحات ١٥٥-١٥٦)

١- إن الحاجة إلى معتقد لتوجيه الأفكار والسير هو من التجبر والقوة، كالجوع والحب.

٢- إن الإنسان، وإن كان يغير اسم آلهته أحيانًا، يستمر على السيطرة عليه ما سيطر عليه دائمًا من العوامل الوجودية.

٣- يميل الإنسان العصري إلى استبداله بالألوهيات الشخصية السابقة عقائد وصيغا عزا إليها ما لهذه الألوهيات من قدرة سحرية، وما تنطوي عليه هذه العقائد الجديدة من صحة ليس أعظم مما تنطوي عليه المعتقدات القديمة على العموم.

٤- لا تقوم المعتقدات الدينية والمعتقدات السياسية ذات الشكل الديني على العقل، ولا يمكن أن تزول بالعقل.

٥- تقوم المعتقدات بالتلقين المشتق من النفوذ والتوكيد والتكرار، وتعد العدوى النفسية أهم وسيلة لانتشارها.

وفي سياق آخر يرى لوبون أن علماء الاجتماع أخطاؤا عندما عدوا نشوء الأديان من الأثر الجمعي، فالأديان هي من صنع الفرد ومن صنع الجموع معًا، فهي من صنع الفرد لما يرى من موجود لها في الأساس كالنبي أو الرسول، وهي من صنع الجموع لاشتقاقها عادة من المعتقدات السابقة العامة، فالمعتقدات الدينية تعد جمعية أيضًا من أجل دعم نجاح الرسل على اعتناق الناس تعاليمهم اعتناقًا عامًا، وهي لا تنتشر إلا إذا لاءمت رغائب الزمن واحتياجاته، وهنا تجد السر في ابداع الرسل لقليل من الأديان الثابتة مع أن عددهم كثير لا يحصى في التاريخ، ومن نجح في هذا هو (بوذا) و (محمد). (لوبون غ.، حياة الحقائق، ٢٠٢٠، صفحة ٤١) وبعدها يحدد غوستاف لوبون ثلاث مراحل لتطور المعتقدات الدينية ويعرضها بالترتيب من الأقدم إلى الأحدث وهي: الوثنية، والشرك، والتوحيد. وعلى الرغم من اختلاف المستوى الفكري لتلك المراحل إلا أن لوبون يضع مبدأ الروحانية كونه مرتكزا يجمع تلك المستويات. تمثل المرحلة الأولى الأفكار البدائية للإنسان والمتمثلة برد كل ما يواجهه في حياته إلى الجانب العاطفي، فنجده يربط أفكاره بالأشجار والأحجار والحيوانات وما إلى ذلك، وبعد تطور العقل البشري دخلت المعتقدات الدينية إلى المرحلة الثانية، وفيها غدا توجه الإنسان إلى القوى الكبرى وحسب، وأصبح تصور الإنسان لهذه القوى أكثر نضوجًا، فقروا بوجود كيان ذاتي مستقل ومتخفي يحكم سلوك الآلهة، أما المرحلة الأخيرة فجاءت نتيجة لتطور المرحلة السابقة لها، فبعد أن لاحظ الإنسان وجود تفاوت في مستوى القوى لتلك الآلهة، وجد الإنسان نفسه مقرًا بالتوحيد وبوجود إله خالق ومدبر، أبدى ومتحجب، وكانت هذه المرحلة أرقى ما وصل إليه الفكر الإنساني آنذاك. (لوبون غ.، ٢٠٢٠، الصفحات ٦٨-٦٩)

ولما للجانب العاطفي من دور في توجيه معتقدات الافراد وتهذيبها نجد أن بعض أصحاب هذه المعتقدات استفادوا من قوة المشاعر وتأثيرها على انطباعات الأمم فتمكنوا من السيطرة عليها وتوجيهها، في كتابه (السنن النفسية لتطور الشعوب) يقول لوبون «أن المتهوسين هم الذين قلبوا العالم رأسا على عقب، ولا يزالون يخضعون الناس لسلطانهم وهم

في القبور، ولا يزالون يعملون في أخلاق الأمم ومصيرها، فلا ينبغي لنا أن نتجاهل شأنهم ثم لا ننسى أنهم ما قاموا بتلك الأعمال إلا لأنهم مثلوا على غير علم خيال أممهم وعصورهم فلا حول لرجل في تحريك أمه... ووحد محمد الدين فألف بين قلوب قوم كان بعضهم لبعض عدوًا». (لوبون غ.، القواين النفسية لتطور الشعوب، ٢٠٢٠، صفحة ١٤١) فنظر غوستاف لوبون إلى الدين على أنها أوهام أوصلها إلى البشر أشخاص خلقوا لأممهم خيالات توضع أمام وجه هذه الدنيا العبوس الجامدة ،وستروا ما في الحياة من غضاه وخلقوا جنات النعيم فنيط بها الرجاء وتوالت الأحلام. (لوبون غ.، القواين النفسية لتطور الشعوب، ٢٠٢٠، صفحة ١٣٣) ويرى غوستاف لوبون أن الناس انطلقوا وراء تلك الأوهام التي جاءوا بها انطلاق الشجاع وأنقذونا من الهمجية الأولى، وأوصلونا إلى ما نحن عليه الآن، فكانت الأوهام هي من أشد عوامل الحضارة تأثيرًا فيقول لوبون: الوهم هو الذي أسس أديانًا دان بها نصف البشر، والوهم شاد أكبر الأملاك وأباد أعظم الدول، وهكذا بذلت الإنسانية كل طاقتها ومجودها وراء الخيال والابتعاد عن الحقيقة، ويرى أن هذه الأوهام أعظم عامل لسير الإنسان حتى الآن والمفكر الذي يكتشف ما يغني الناس عنها لم يولد بعد. (لوبون غ.، القواين النفسية لتطور الشعوب، ٢٠٢٠، صفحة ١٤٢) أما دور الآلهة فكان له الهيمنة على تاريخ الشعوب، والحقيقة أن هذه الهيمنة سارت أيضًا في الأزمنة الحديثة، وبحسب وجهة نظر لوبون أن الآلهة غيرت أسمها وحلت محلها الأفكار والشعارات لكنها أيضًا بقت نفس القوة التي عزا عبادها إليها التي كانت تعزا إلى الآلهة القديمة، ويلاحظ ما من شعب يستطيع العيش من دون آلهة ومع مرور الزمن يعتنق آلهة أحيانًا وليس عن طريق العقل، ومع ذلك يبقى عرشها قائمًا فيقول: لقد حلت المسيحية محل عبادة الأصنام التي استنفذت، وكذلك حل الإيمان الاشتراكي محل المسيحية التي استنفذت بدورها. (لوبون غ.، إرتيابات الوقت الراهن، ٢٠٢٠، صفحة ١١٧) ويقر لوبون أن الآلهة تحدرت من الأوهام نفسها، ومارست الدور نفسه؛ لذا لن يكون بمقدورنا أن نضع لها تسلسلًا هرميًا. (لوبون غ.، إرتيابات الوقت الراهن، ٢٠٢٠، صفحة ١١٩)

ويعتقد غوستاف لوبون أن المعتقدات الدينية لم تجد ما يدعمها سوى الأوهام، فإنها كانت بمثابة دعامة للحضارات الكبرى، سواء من أجل نشرها أو من أجل محاربتها، ولم تكن الآلهة الكبرى على عمر التاريخ: مثل بوذا، والله، وآلهة أخرى كثيرة عبدها ملايين الناس، وسيعبدونها من إبداعات الخوف، ولكنها تحدرت من الرجاء، والرجاء هو الإله الوحيد الذي لم يستطع الزمن زعزعته. (لوبون غ.، إرتيابات الوقت الراهن، ٢٠٢٠، الصفحات ١١٧-١١٨) وتجدر الإشارة هنا إلى أنه إذا كان الخوف والطمع مصدر الدين، وهو تفسير انتشر بقوة في عصر الأنوار. (برهييه، ١٩٨٣، صفحة ٦٣) فإن غوستاف لوبون في نهاية أبحاثه

يستبعد الخوف، ويبقى على الطمع تحت مسمى الأمل؛ لأنه لو كان الخوف سبب وجود الدين، لتوقفت الحاجة إليه متى توفر الأمان، وهذا لم يحدث، ومن ثم الدين مستمر عند لوبون بسبب استمرار الأمل فيما هو أفضل، وتأتي سلطة الدين عنده، لكونه مستقرا في أعماق الأفراد، فيقول: كما ذكرنا في الصفحات السابقة أن المعتقد هو إيمان ناشئ عن مصدر لا شعوري يكره الإنسان على تصديق فكر أو رأي أو تأويل أو مذهب جزافًا، وسوف نرى أن العقل غريب عن تكوين المعتقد، ولا يأخذ العقل في تسويغ المعتقد إلا بعد أن يتم تكوينه. (لوبون غ.، الآراء والمعتقدات، ٢٠٢٠، صفحة ١٨) والأمل هنا هو الذي يخلقه المعتقدات. ويتصور غوستاف لوبون من جهة تجلي أحد أدوار الأديان فائدة في خلق يقين بوجود مستقبلي قادر على تجميل الحياة الراهنة، فالإنسان الواثق من السعادة الأزلية هو أسعد من الإنسان الذي يعتقد أن وجوده عابر، فوحده الخوف من الجحيم هو الذي يمنعه من أن يكون سعيدًا تمامًا، ومن جهة أخرى: يرى أن ظهور تأثير الأديان بصورة مباشرة في الفنون التشكيلية، ويضرب مثالًا على ذلك، بتجسيد الأعمال الفنية العظيمة في مصر، والهند، وأوروبا، في الآثار الدينية، فكان لا بد من بناء معابد أزلية تليق بالآلهة التي عدت أزلية، فيرى لوبون أن إحدى قوة الآلهة تكمن في صعوبة استبدالها، فيقر لوبون أن الأوهام الاشتراكية هي أقل إرضاء للروح من الأوهام الدينية. (لوبون غ.، إرتيابات الوقت الراهن، ٢٠٢٠، صفحة ١١٩) أي أن لوبون في تفكيره بأهمية الأديان كان نفعيًا بحتًا، فكر في الدين على أنه مجرد وسيلة تخدم الإنسان والمجتمعات عامة.

وفي نهاية مطلبنا عن نشوء الأديان لدى غوستاف لوبون نختم بقوله: «أجل، استطاع العلم أن يدخل الإنسان إلى دائرة الحقيقي بعد جهود قرون، بيد أن غير الحقيقي لا يزال يغمره، وقد خرج التاريخ الحديث من الصراع بين الحقيقي وغير الحقيقي، وأقول مكررً إن غير الحقيقي المهيمن على أفكارنا ومعتقداتنا وأحلامنا يظل من أعظم موجدي الحقيقي». (لوبون غ.، فلسفة التاريخ، ٢٠٢١، صفحة ١٥٦)

المطلب الثالث: العقل والإيمان عند غوستاف لوبون:

يؤكد لوبون بأن الإيمان لا يمكن أن يكون عقليا؛ لأن قضايا الدين لا تنسجم مع العقل، ولذلك يتساءل بقوله: هل يستطيع معتقد ديني أو هنه الزمن أن يتحول إلى معتقد عقلي؟ فيقول: «لا يأتي التاريخ بغير مثال على مثل هذا التحول، وهذا هو الذي أتمته البروتستانتية عندما اتخذت الطور العقلي كما يسمى، فقد رفض في تطور النصرانية الأخير هذا مبدأ وجود إله يدع ابنه يهلك في الآلام تكفيرًا عن خطايا مخلوقاته، وقد أضاع يسوع أصله الإلهي وعاد لا يعد غير معلم بشر بحقائق نافعه، والنصرانية بعد أن تحولت على هذا الوجه عادت لا تكون دينًا في الحقيقة، وصارت لا تلائم الرغبات الوجودية في النفوس التي تقلقها

الحاجة إلى الإيمان بعالم قادم أكثر صلاحًا». (لوبون غ.، فلسفة التاريخ، ٢٠٢١، صفحة ١٥٥) ومع ذلك يرى لوبون: أن المعتقدات الدينية لا يمكن أن تهزها أكبر الزلازل والصواعق والاضطهادية أن تزلزلها، بل على العكس من ذلك تمامًا أنها ظلت شامخة تناطح جميع القوى التي وقفت ازاءها، ويضيف أيضًا: من جهة ما كان أشد الاضطهادات ليزلزل المعتقدات، ومن جهة أخرى وما كانت الاضطهادات لتؤدي إلى غير تقويتها، فجاء لوبون بأمثلة بارزة على أوائل الإصلاح الديني، ولو دعي الشيوعيون في بقعة ما من بقع العالم إلى مكابدة العذاب الذي فرضه نيرون على النصارى لاتسع نطاق الإيمان الشيوعي بأسرع مما يتفق له اليوم لا ريب. (لوبون غ.، فلسفة التاريخ، ٢٠٢١، صفحة ١٥٥)

ويعتقد غوستاف لوبون أن المعتقدات الدينية كان لها دور كبير في الهيمنة على العقل أو تأثر العقل فيها، ونرى على سبيل المثال: أن هناك عبقريات كبرى مثل: ديكارت(١٥٩٦-١٦٥٠) تقبل عقائد دينية وتدافع عنها. (لوبون غ.، إرتيابات الوقت الراهن، ٢٠٢٠، صفحة ١٢٤) وفي السياق نفسه يذكر أيضًا أميل بريه أن ديكارت الذي سار على أثره الكثير من العلماء ذكر أن المعتقد صادر عن العقل والإرادة كما أنه لم يقبل من المعتقدات إلا الصادق والمميز بشكل واضح. (برهييه، ١٩٨٣، صفحة ٦٣) ويشير لوبون إلى نيوتن عندما تناول "هذيان نهاية العالم" شل عقله تحت التأثيرات الصوفية التي سيطرت عليه تمامًا من وجهة نظر العقل المحض، وعليه فإن كل المعتقدات الدينية منذ عبادة الأفعى وصولًا إلى عبادة الله، تملك قيمة متساوية إلى حد كبير، والسبب في ذلك أنها تأتي من أوهام سيكولوجية متماثلة. (لوبون غ.، إرتيابات الوقت الراهن، ٢٠٢٠، الصفحات ١٢٤-١٢٥)

يعتقد لوبون أنه إذا استطاع المؤمنون إشغال أنفسهم بالقيمة العقلانية لمعتقداتهم ، فلن يكون هناك مؤمنون على الإطلاق. والمؤمن الذي يرفض التفكير في إيمانه حتى لا يفقده هو ضحية خوف وهمي ، ولا ينجح العقل في هدم أية عقيدة إلا عندما يقترب هذا الأخير من الموت في نفس المؤمن. (لوبون غ.، إرتيابات الوقت الراهن، ٢٠٢٠، صفحة ١٢٦)

ويرى لوبون أن الأخذ بأحكام العقل أو هي عينها أحكام القلب فإن الآلهة ستهلك سريعًا. (لوبون غ.، إرتيابات الوقت الراهن، ٢٠٢٠، صفحة ١٢٦) ؛لأن الإيمان قلبي لا عقلي، ويستشهد بقول بليز باسكال، إذ يقول: «إن القلب هو الذي يشعر بالله وليس العقل». (باسكال، صفحة ٩٧)

وفي الختام، هذا هو الدين عند لوبون، وهذه هي طبيعته وكيف يظهر ومصدر قوته. وستستمر في تزويد العرق الذي يؤمن بها بأسباب القوة وعوامل النصر والتقدم، بشرط الالتزام بعدم منازعة تعاليمه والحفاظ على مبادئه مهما تعارضت مع المنطق العقلاني، بعيدا

عن كل الانتقادات. وأية مخالفة لهذا الشرط تعني أن هذا الاعتقاد في مراحله الأخيرة، وهو في طريقه إلى الزوال، لتحل محله فكرة دينية أخرى، تأتي دائما من الإنسان، ولكنها تتميز بالقوة نفسها التي كانت عليها السابقة، وكان للفكرة الدينية إذا التزمت بالشروط اللازمة؛ لأنه كما قال لوبون: ليس للإيمان عدو يخاف منه إلا الإيمان.

الخاتمة:

وفي ختام بحثنا عن الدين، عملنا على توضيح العلاقة بين الإنسان ومعتقداته وآرائه، وكانت علاقة حساسة للغاية ولها تأثير على مسار الفرد، وبدأنا أيضًا بتعريفات عامة تفرق بين الرأي والاعتقاد، وعلاقتهما بالمعرفة بحسب مفهوم لوبون للدين، ومن أهم القضايا التي أشار إليها لوبون هي: البحث حول كيفية إيمان أنجح العقول في كل جيل بمعتقدات لا تدعمها الأدلة، وفي النهاية توصلنا إلى أن لوبون قد اعتمد قانونا فلسفيا مهما، وهو أن مبادئنا مستمدة من أنواع مختلفة من المنطق، وليس من مصدر عقلاني مشترك، ومن يهزم أحد هذين النوعين على الآخر أو لا يصدمهما ستظهر أعظم أحداث التاريخ.

النتائج:

١- إن الأيمان بحسب لوبون يأتي تلقينيا أو تقليديا.

٢- وفقا للوبون لا يمكن أن يكون الإيمان عقليا؛ لأن قضايا الدين لا تنسجم وإنما يكون الإيمان قلبيا.

٣- إن أكثر المعتقدات الدينية بحسب لوبون كانت مهيمنة على العقل.

المراجع

١. اميل برهييه. (١٩٨٣). تاريخ الفلسفة (المجلد ١). (جورج طرابيشي، المترجمون) بيروت: دار الطليعة للنشر والتوزيع.
٢. بارون دولباخ. (١٩٨٨). نظام الطبيعة (المجلد ٦). بيروت: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.
٣. بليز باسكال. (بلا تاريخ). الخواطر. (ادوار البستاني، المترجمون) بيروت: المكتبة الشرقية للنشر والتوزيع.
٤. غوتساف لوبون. (٢٠٢٠). مقدمة الحضارات الأولى (المجلد ٢). بيروت: دار الرافدين للنشر والتوزيع.
٥. غوستاف لوبون. (١٩٣٨). اختلال التوازن العالمي (المجلد ١). (صلاح الدين وصفي، المترجمون) مصر: مطبعة العرب للبستاني.
٦. غوستاف لوبون. (١٩٩١). سيكولوجية الجماهير (المجلد ١). بيروت: دار الساقي.
٧. غوستاف لوبون. (٢٠٢٠). إرتيابات الوقت الراهن (المجلد ١). (باسل الزين، المترجمون) بيروت: دار الرافدين للنشر والتوزيع.
٨. غوستاف لوبون. (٢٠٢٠). الآراء والمعتقدات. بيروت: دار الرافدين للنشر والتوزيع.
٩. غوستاف لوبون. (٢٠٢٠). القواين النفسية لتطور الشعوب (المجلد ٢). بيروت: دار الرافدين للنشر والتوزيع.
١٠. غوستاف لوبون. (٢٠٢٠). حياة الحقائق (المجلد ١). بيروت: دار الرافدين للنشر والتوزيع.
١١. غوستاف لوبون. (٢٠٢١). فلسفة التاريخ (المجلد ١). (عادل زعيتر، المترجمون) بيروت: دار الرافدين للنشر والتوزيع.
١٢. فراس السواح. (٢٠٠٢). دين الإنسان (بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني (المجلد ٤). دمش: منشورات دار علاء الدين.